

العوامل الطارئة على اللفظة دراسة لقضايا اللفظ والتصحيح والتوليد والتعريب... في ضوء علم اللفظة الحديث

الدكتور محمد سعيد : كلية دارالعلوم
جامعة القاهرة

فقال : اوليس بظريف ابن اخي يتكلم بالفارسية ،
فلن معاوية ان الكلام بالفارسية لحن « ومن ذلك
البيت المشهور للفزاري

منطق صائب وتلحن احيانا
وخير الحديث ما كان لحنا

ومن معانيها ايضا « التورية » باستخدام معنى
قريب وارادة معنى بعيد ، وعلى ذلك الف ابن دريد
كتابه « الملاحن » قاصدا به استخدام الكلمات وارادة
معان اخرى لا تخطر لأول وهلة على الدهن عند سماع
الكلمة ، وفي مجال المعنى ايضا اطلقت على الخطأ في
المعاني ، وذلك باستعمال الكلمة او التركيب كله على
غير وجهه الذي قرره له العلماء ، وقد الف المفضل
ابن سلمه كتابه « الفاخر فيما تلحن فيه العامة » من
هذا النوع من الخطأ في المعاني ، وجاء في مقدمته
قوله : « هذا كتاب معاني ما يجري على السن العامة
في امثالهم ومحاوراتهم من كلام العرب ، وهم لا يدرون

لكتابة هذا البحث حول معنى اللحن في الكلام
العربي وتطور استعماله ومقاومته ينبغي - كما هو
واضح في عنوانها - تناول الامور الآتية :

1 - معرفة المقصود باللحن وبيان مظاهره مع
تقديم نماذج لها .

2 - بيان تطور استعماله في الكلام العربي
باختصار .

3 - حركة المقاومة العلمية التي تمثلت في
جهود العلماء لتنقية اللحن .

لقد بحث كثير من الدارسين في كلمة « اللحن »
وتمدد معانيها ، وتطور هذه المعاني ، ويذكر في هذا
الصدد ان من معانيها « الفطنة والذكاء » استنادا الى
قول الرسول (لعل احدكم ان يكون لحن بحجته من
بعض) او التطرف في الحديث بخلطه بالكلام الاجنبي
او الكلام المتعمد فيه الخطأ كما روى ابن دريد انه
« قيل لمعاوية : ان عبد الله بن زياد يلحن في كلامه ،

معنى ما يتكلمون به من ذلك ، فيبناه من وجوهه على اختلاف العلماء فى تفسيره .

فهذه المعاني وغيرها تندرج تحت كلمة « لحن » وربما استعملت فى تصور متفاوتة خاضعة فى ذلك لتطور الدلالة كما هو شأن الكلمات فى كل اللغات أو استعملت بمعان متعددة فى عصر واحد بعد أن تجمعت حول الكلمة ، والذي يبين أحد هذه المعاني ظروف الدلالة للنص الذى وردت فيه .

ولا علينا من ذلك كله ، فان اللحن الذى تقصده هنا هو « خروج الكلام الفصيح من مجرى الصحة فى بنية الكلام أو تركيبه أو امرابه بفعل الاستعمال الذى يشيع أولا بين العامة من الناس ، ويتسرب بعد ذلك الى لغة الخاصة » واللحن بهذه الصفات امر طاريء على اللغة الفصحى ، اذ ان المفترض فى نطق العرب لها أولا هو الصحة والسلامة امتدادا على الفطرة والسليقة ، فهذا هو الاصل ، فما حاد عن هذا الاصل الفطري المتوارث فهو خطأ ، ويوصف نطقه حينئذ بأنه « لحن » وغالبا ما يضاف « اللحن » الى « العوام » أو « العامة » تنبيها على الاصل الذى جاء منه الخطأ فى الاستعمال .

— قال ابن دريد : فاما اللحن فى العربية ، لانك اذا قات (ضرب عبد الله زيد) لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب ، فكانك قد عدلته عن وجهه ، فاذا امرت عن معنالك فهم (1) عنك .

— سمع ابو عمرو بن العلاء ان ابا حنيفة يبطل القود الا ما كان قتلا بحديد ، فقال له ابو عمرو: ارايت ان ضربه بكذا ، ارايت ان ضربه بكذا ، قال لو ضربه بابو قبيس لم يكن عليه قود ، فقال ابو عمرو: هذا كلام شنع ، قال : وما الشنع ؟ قال : ولا تعرف الشنع ايضا !! (2)

— روى الزجاجي : كان سيبويه مستمليا لحمام بن سلمة — وكان حمام فصيحاً — فاستملاه يوما قول رسول الله (ص) : ليس من اصحابي احد الا ولو شئت اخذت عليه ليس ابا الدرداء ، فقال سيبويه (ليس ابو الدرداء) فصاح به حمام : لعنت

يا سيبويه ، ليس هذا حيث ذهبت وانما هو استثناء ، فقال سيبويه : لا جرم والله لاطلبن علما لا تنحني معي ، فمضى ، ولزم مجلس الاخفش مع يعقوب الحضرمي والخليل وسائر النحويين (3) .

— قال ابن الجوزي : واعلم ان غلط العامة يتنوع ، فتارة يضمنون المكسور ، وتارة يكسرون المضموم وتارة يمدون المقصور ، وتارة يقصرون المدود ، وتارة يشددون المخفف ، وتارة يخففون المشدد وتارة يزيدون فى الكلمة ، وتارة ينتقصون منها ، وتارة يضعونها فى غير موضعها ، الى غير ذلك من الاقسام (4) .

ويستنبط من النماذج السابقة الدلالة على السمات التى يوصف الكلام من اجلها « باللحن والخطأ » فابن دريد يرى الاخلال بالامراب فى مثل (ضرب عبد الله زيد) لحنا فى العربية ، وهذا حق ويفسره بالمدول عن الوجه فيه من نصب (زيد) فى العبارة السابقة ، وهذا حق ايضا لكنه يتوسع فى فهم المدول عن الوجه فى الكلام بما يشمل الدلالة ايضا « لم يدر ايهما الضارب ولا المضروب فاذا امرته فهم منك » وهذه وجهة لفهم اللحن فى المعنى ، ويصادفها المرء كثيرا فى الكتب التى تناولته بالدراسة ، وان لم تصل الى الفهم الشائع منه من الخطأ فى الاعراب .

وابو عمرو بن العلاء يصف نطق ابي حنيفة (ضربه بابو قبيس) بأنه « كلام شنع » مستخدما صيغة المبالغة فى وصف الخطأ الامرابي فى الكلام الذى هو « اللحن » وهو ما ذكره صراحة حمام ابن سلمة لسيبويه حين اخطأ فى مثل ما اخطأ فيه ابو حنيفة من قوله (ليس ابو الدرداء) ، اذ صاح به حمام (لعنت يا سيبويه) فمن ذلك يتضح ان اللحن يطلق على الخطأ فى الاعراب اذا حدث فى اللغة الفصحى ، فاستعمل فيها تأثرا بما شاع بين العوام وفى الكلام الدارج ، كما انه يشمل ايضا ما عدده ابن الجوزي من ضم المكسور وكسر المضموم الخ . . وهذا فى معظمه يتعلق ببنية الكلمات ، وقد سماه « غلط العامة » ايضا .

(1) الملاحن ص 6 .

(2) مجالس العلماء ص 110 .

(3) السابق ص 154 .

(4) تقويم اللسان ورقة 2/ .

3 - ومن ذلك (الحشمة) يضمها الناس موضع الاستحياء ، قال الاصمعي ، وليس كذلك انما هي بمعنى الغضب ، وحكى عن بعض فصحاء العرب انه قال : ان ذلك لما يحشم بني فلان ، اي يغضبهم (3) .

4 - ويقولون (بكرت اليك) بمعنى هدوت خاصة ، وقال ابو بكر (ابن دريد) البكور التعجل في جميع اوقات الليل والنهار ، يقال : انا ابكر اليك العشية ، وانشد ابو زيد لضمرة بن ضمرة :

بكرت تلومك بعد وهن في الندي
بسل عليك ملامتي ومقابلي

يقال : بعد وهن ، يعني حيناً من الليل (4)

5 - قولهم للثوب (وشاح) قال محمد (الزبيدي) والشواح نظمان من لؤلؤ يخالف بينهما ، ويعطف احدهما على الآخر ، وتتوشح به المرأة على كشحها (5) .

6 - ويقولون (ذو نفع ضر) فيضمون ، قال محمد (الزبيدي) والصواب (ضر) بالفتح ، واما (للضر) فهو السقم ، قال الله عز وجل : « وان يمسك الله بضر فلا كاشف له الا هو » (6) .

7 - ومن ذلك (الاستحمام) يكون عندهم بالماء الحار والبارد ، وليس كذلك ، انما الاستحمام بالماء الحار خاصة (7) .

8 - قول المتكلمين (هذه المحسوسات) خطأ ، والصواب (المحسات) لانه يقال : احسست الشيء بمعنى ادركته ، فاما المحسوس فهو المقتول ، ممن حسه اذا قتله (8) .

9 - وتقول (استخفيت من فلان) والعامية تقول (اختفيت منه) وانما الاختفاء الاستخراج ومنه قيل للنباش (مخف) (9) .

10 - وتقول (اصبح القوم) اذا صاحوا وجلبوا ، والعامية تقول (ضجوا) وانما يقال (ضجوا) اذا جزموا (10) .

ومما ذكره ابن الجوزي قوله « وتارة يضمون الكلمات في غير مواضعها » وانهم من ذلك ما يشمل تاليف الكلام العربي ووصف الكلمات في التراكيب اللغوية ، وما يشمل معاني الكلمات في استخدامهما على غير ما قرره لها علماء اللغة ، وهذا الاخير جانب اطلق العلماء عليه ايضاً انه « لحن وخطا » وان لم يكن من الكثرة والشهرة ما للاخلال بالامراب او بنية الكلمات .

فقد اندرج تحت ما اطلق عليه « اللحن » امور ثلاث ، اقلها شهرة واهتماماً الخطأ في المعنى باستعمال اللفظ او التركيب في غير ما هو له من المعنى ، واعظمها شهرة وكثرة واهتماماً من علمائنا الخطأ في بنية الالفاظ او الامراب ، وساقدم هنا امثلة قليلة لهذه المظاهر الثلاثة ، الهدف منها تقديم النماذج لا الاستقصاء ، فان مؤلفات اللحن وحدها - فيما استقرانه - بلغت اكثر من اربعين مؤلفاً ، تحوي مادة لغوية ضخمة لهذه المظاهر الثلاثة ، وسياتي عرض ذلك فيما بعد .

اولاً : من نماذج الخطأ في المعاني :

1 - مما تضمنه العامة في غير موضعه قولهم (خرجنا نتنزه) اذا خرجوا الى البساتين وانما (التنزه) التباعد عن المياه والارياض ، ومنه قيل : فلان يتنزه من الاقدار ، اي يتباعد منها ومنه قول الهدلي :

اقب طريد تنزه الفلاة لا يرد الماء الا اثيابا (1)

2 - ومن ذلك (الطرب) يذهب الناس الى انه في الفرح دون الجرع ، وليس كذلك انما الطرب خفة تصيب الرجل لشدة السرور او لشدة الجرع ، قال الشاعر وهو النابغة الجعدي :

واراني طرباً نسي الرهم

طرب الواله او كالمختبل (2)

(1) اصلاح المنطق ص 287 .

(2) 3 - 2) أدب الكاتب ص 18 - 19 .

(3) 4 - 5 - 6) انظر لحن العوام ص 137 - 206 - 244 .

(7) لحن العوام ص 256 .

(8) ذيل الفصيح ص 102 .

(9) 10) رسالة في اغلاط العوام ورقة 101 .

يخلط فيه العامة ، والعرب تقول (دخل في خماس الناس) أي فيما يواريه ويستره منهم حتى لا يبين (1)

2 - ويقولون (مقداف السفينة) قال محمد (الزبيدي) والصواب (المجداف) ومنه جدف الطائر بجناحيه يجدف جدوفا ، اذا كان مقصوفا ، فرأيته كأنه يرد جناحيه الى خلفه ويدارك الضرب (2) .

وواضح ان الخطأ في هذين المثالين سببه التطور الصوتي ، لقرب المخرج بين كل من الخاء والغين في (خماس وغمار) وكذلك بين كل من الجيم والقاف في (مجداف ومقداف) وربما نقلت الجيم اولا (ج) ثم تطورت الى القاف .

3 - قال الجاحظ : كان هند عمر بن عبد العزيز رجلا ، فجعلنا يلحنان ، فقال الحاجب (قوما فقد اوذيتما امير المؤمنين) قال عمر : انت آذى لي منهما (3) .

4 - قال ابو عمرو : يقال : انزلت له زلة ولا يقال (زلت) وقد افلقت الباب فهو مغلق ، ولا يقال (مغلق) وقد افلقتة فهو مقفل ولا يقال (مقفول) (4) .

5 - ويقولون (هبت الارياح) مقياسة على قولهم (رياح) وهو خطأ بين ، والصواب ان يقال (هبت الارواح) كما قال ذو الرمة :

اذا هبت الارواح من نحو جانب
به اهل مي هاج قلبي هبوبها

والعلة في ذلك ان اصل (ربح) (روح) لاشتقاقها من (الروح) وانما ابدلت الواو ياء في (ربح ورياح) للكسرة التي قبلها ، فاذا جمعت على (ارواح) فقد سكن ما قبل الواو ، وزالت العنة (5) .

6 - ويقولون للمطهرة (مبيضة) وبعضهم يقول (مبيضاء) والصواب (مبيضة) بالهمزة ، والجمع (مواضيء) (6) .

ويكفي هذه الامثلة العشرة لهذا النوع من الخطأ في المعنى ، او ما وصف بأنه « لحن العوام » والملاحظ على هذه الامثلة - وشبهها كثير - ان الحكم عليها باللحن كان من زاوية الاستعمال في فترة خاصة ، فالتزم هذا الاستعمال وتوقف ، ولم يؤخذ في الاعتبار بالنسبة لها تطور الدلالة التي قد تتغير من جيل لجيل ، فالكلمات ليست احجارا جامدة ، ولكنها وسيلة اجتماعية يطرا عليها التفسير في معانيها ، والتطور في دلالاتها بحسب العرف القوي السدي يستخدمها ، ومن المفيد ان نلاحظ ايضا ان معاني هذه الكلمات العشر التي حكم عليها بالخطأ ظلت منذ القديم سائدة حتى الوقت الحاضر - وانه لا يخطر ببال احد استعمالها بالعرف الذي رأى العلماء انه هو العرف الصحيح ، فمن ذا الذي يفهم من (خرجنا ننزوه) التبعاد عن المياه والارياح ، ومن (الطرب) الحزن والسرور معا ، ومن (الحشمة) معنى الغضب لا الاستحياء ، ومن (البكور) التعجل عامة ، ومن (الوشاح) نظمان من اولاد لا الشوب ؟؟ ومن الذي يستخدم (الضر) بالفتح في مقابل النفع، ويتترك (الضر) بالضم ويفهم من (الاستحمام) انه للماء الحار خاصة ، ومن (لاختفاء) الاستخراج لا التوارى عن العيون !! فمن الواضح ان تفكير علماء اللغة على هذا النحو تفكير التزم التعميد والتحديد ولم يأخذ في اعتباره المرونة والتطور ، فبقيت دراستهم في واد والاستعمال في واد آخر ، ولست مغالبا ان قلت : ان هذه الجهود كلها افادت من حيث الدراسة في ذاتها ، لكنها لم تتفق مع طبيعة اللغة ، ولذلك لم تغد كثيرا في تعديل ما اطلق عليه (اللحن) في عصرهم او بعد عصرهم .

ثانيا : من نماذج الخطأ في بنية الكلمات :

1 - قولهم (دخل في غمار الناس) هذا مما

- (1) الفاخر فيما تلحن فيه العامة ص 246 .
- (2) لحن العوام ص 69 .
- (3) البيان والتبيين ج 3 ص 24 .
- (4) اصلاح المنطق ص 227 .
- (5 - 6) لحن العوام ص 169 - 174 .

7 - ويقولون (يوم مهول) ، والصواب (يوم هائل) و (امر هائل) يقال : هالني الشيء يهولني هولاً ، فهو هائل (1) .

8 - يقولون (استهتر الرجل فهو مستهتر) (بالكسر) والصواب (استهتر فهو مستهتر) (بالفتح) وهو الذي يخلط في اقواله وافعاله ، حتى كأنه بلا عقل (2) .

9 - وتقول : هذه مروحة ومخدة ومقنعة ومنحفة وملة ومذبة ومغرفة ومقطرة ومطرقة ومدقة ومقرعة ومنطقية ومبسررد ومطررد ومبضع ومنديل والمساح - موضع بطريق مكة - والرنج - النجم - كله بكسر الميم والعامية تفتحها (3) .

10 - ويقولون في جمع بيضاء وصفراء وسوداء ، ييضاوات وصفراوات وسوداوات ، وهو لحن فاحش ، لان العرب لم تجمع فعلاء التي هي مؤنث افعال بالالف والتاء ، بل جمعتها على (فعل) نحو بيض وصفر وسود ، كما جاء في القرآن (ومن الجبال جدد بيض وحمر مختلف ألوانها وغرابيب سود) وفي قول امرئ القيس :

وتحسب سامي لا تزال تسرى طلا

من الوحش او بيضا بميثاء محلال (4)

فالنماذج العشر السابقة - ومثلها كثير - تتعلق ببنية الكلمة العربية ، وتدخل تحت مباحث علم الصرف ، وترتب على ذلك ان الحكم عليها « باللحن والخطا » جاء في ضوء القواعد الصرفية لبعضها يتعلق باخلال بنطق حروف الكلمة بوضع حرف مكان آخر في (شمار وخمار) و (مقدار ومجداف) او باجراء الاعلال وتركه على غير مقتضى قوانين الاعلال والابدال كما في (ازلتت وزلت) او صياغة المشتقات على غير الطريقة المحددة لها في شكل الحروف وكميتها مثل (مفلق ومفلوق - مقفل ومقفول مهول وهائل - مروحة ومروحة .. الخ) . او في الهمز والتسهيل كما في (ميضاه وميضاة) او بناء الفعل للمماوم والمجهول حسبما ورد من العرب وقررت كتب الصرف كما في (استهتر واستهتر واستضحك

واستضحك) او في صيغة الجمع للمفرد كما في (ييضاوات وييض) . فكل هذه المباحث قرر لها علماء النحو والتصريف مبادئ محددة ، وفي ضوء هذه المبادئ غالباً نظروا الى طريقة استعمال اللغة على مدى العصور ، فكل ما وجدوه مخالفاً لها ، حكموا عليه « باللحن » ونسبوه الى العوام .

ومن المفيد ان يعرف ان هذا النوع من الخطا قد حظي بعناية العلماء منابفة فائقة في « كتب لحن العامة » مما لم ينل مثله المظهران الاخران من مظاهر اللحن اللذان يتعلقان بالمعاني او التركيب والاهراب ، ولعل ذلك يرجع الى الاعتقاد بان هذا المظهر من اللحن اشد خطورة على اللغة من المظهرين الاخرين لما يترتب عليه من « تشويه اللسة » وطمس المعاني واضطرابها ، بالاضافة الى ما اطمانوا اليه من ضخامة الجهود النحوية التي تقى من « اللحن » في الاهراب بالنسبة للجهود في بنية الكلمات ووضع القوانين لها .

ثالثاً : من نماذج الخطا في التركيب والاهراب :

1 - تقول (شكرت لك ونصحت لك) ولا يقال (شكرتك ونصحتك) وقد نصح لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب ، قال الله تعالى (واشكروا لي ولا تكفرون) (ولا ينفعكم نصحي ان اردت ان انصح لكم) (5) .

2 - قال الاخفش : اخبرني المبرد قال : انشدني سليمان بن عبد الله بن طاهر لنفسه :

وقد مضت لي هشرونان ثنتان

فقلت له : ايها الامير ، هذا لحن ، لان امراباً لا يدخل على امراب (6) .

3 - من اللحن قولهم (العوام) فيه تبارك وتعالى (هذه صفة ذاته ، وهو مبين بالذات) قال محمد (الزبيدي) ولا يجوز ان يلحق الالف واللام (ذو ولا ذات) في حال افراد ولا تثنية ولا جمع ، ولا تضاف الى المضمرات ، وانما تقع ابداً مضافة الى

(2،1) لحن لعوام ص 253 - 255 .

(3) تقويم اللسان ورقة 25 .

(4) تصحيح التصحيف وتحريير التحريف ورقة - 104 .

(5) ما تلحن فيه العوام ص 25 .

(6) الوشح ص 357 .

9 - (عند) لا تقع الا ظرفا او مجرورة بمن ،
وتقول العامة (ذهب الى عنده) لحن (7) .

10 - وتقول (ما رايت من امس ومن ايام) وهو
غلط ، لان (من) تخص المكان ومد ومد يختصان
الزمان (8) .

وبلاحظ على الامثلة العشرة السابقة ان الكثير
منها يتعلق بتأليف التركيب العربي ، والامر الذي
استقر عليه هذا التأليف بين النحاة ، وما جاء مخالفا
للطرائق المنظمة لذلك ، ينبغي ان يدخل دائرة «اللحن
والخطا» كما هو واضح تماما في (ادخل باللسن
السجن) و (شكرت لك ونصحت لك) و (لا افعل
هذا قط) والصحيح فيه (ما فعلت هذا قط) وكذلك
(لا غير) والقواعد تقضي بان التعبير الصحيح هو
(ليس غير) - كما ان بعض الاخطاء تعود - في نظر
النحاة - الى استخدام الادوات بطريقة غير ما استقر
عليه الامر - وبخاصة حروف الجر - كما في (ذهب
الى عنده) وصحتها (جئت عنده) و (جئت من عنده)
وكذلك (ما رايت من امس) وتقضي القواعد استخدام
(منذ) في هذا الموضع - كما يعود اللحن هنا كذلك
الى الشكل الامرابي ، وخروج الكلام عن مقتضاه ،
كما في (مشرونان) اذ قال المبرد منبها على الخطا
فيها « ايها الامير ، هذا لحن ، لان امرابا لا يدخل على
امراب » وكذلك قول ابي حنيفة (يدخل الجنة قوم
حفاة مراة منتنين) حيث صححها له ابو زيد الانصاري
بقوله (منتنون) تشبيها على الخطا الامرابي في
الصفة .

وطريقة تأليف الكلام واستخدام الادوات
النحوية والامراب كلها من المباحث التي يتناولها النحو
مع غيرها من المباحث التي تتعلق بالتركيب اللغوي
واسراره .

والذي افهمه ان ايراد مثل هذه الاخطاء النحوية
في دراسة « لحن العامة » هو ايراد لما حدث في
« اللغة الفصحى » وفي الاستعمال الخاص لهذه اللغة

الظاهر ، - الا ترى انك لا تقول (اللو ولا الدوان ولا
الدون ولا الذات ولا الذوات ولا ذوك ولا ذوه ولا ذوهما
ولا ذوهن ولا ذواتها ، ولا تقول : مررت بذاته ولا
بذاتك) وقد غلط في ذلك اهل الكلام واكثر المحدثين
من الشعراء والكتاب والفقهاء (1) .

4 - قال ابو زيد الانصاري : لقيت ابا حنيفة ،
فحدثني بحديث فيه (يدخل الجنة قوم حفاة مراة
منتنين قد احمشتهم النار) فقلت له : انما هو
(منتنون قد محشتهم النار) فقال : ممن انت؟؟ فقلت:
من اهل البصرة ، فقال : اكل اصحابك مثلك؟؟ قلت:
بل انا اخسهم حظا في العلم ، فقال : طوبى لقوم
يكون مثلك اخسهم حظا (2) .

5 - ويقولون (ادخل باللسن السجن) والصواب
ان يقولوا (ادخل اللسن السجن) لان الفعل تارة
يعدى بهمزة النقل كقولك (خرج واخرجه) وتارة
بالياء ، كقولك (خرج وخرجت به) فاما الجمع بينهما
فممتنع (3) .

6 - العامة تقول (فعل الغير ذلك) فيدخلون
على (غير) اداة التعريف ، والمحققون من النحويين
يمنعون من ادخال الالف واللام عليه ، لان المقصود
بدخول آلة التعريف على النكرة ان تخصصه لعينه ،
فاذا قيل (الغير) اشتملت هذه اللفظة على ما لا يحصى
كثرة (4) .

7 - والعامة تقول (لا افعل هذا قط) في
المستقبل (ولا افعله ابدا) وهو غلط ، والصواب ان
تقوله في الماضي (ما فعلت هذا قط) اي فيما انقطع
من عمري (5) .

8 - (غير) اسم ملازم للاضافة في المعنى ،
ويجوز ان يقطع عنها لفظا ، ان فهم المعنى وتقدمت
عليها كلمة (ليس) ، وقولهم (لا غير) لحن ، ويقال
(قبضت عشرة ليس غيرها) (6) .

(1) لحن العوام ص 12 .

(2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحرير ص 38 .

(3) - 4 تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة 59 - 240 .

(5) تصحيح التصحيف وتحرير التحريف ورقة 254 .

(6) المنفى ج 1 ص 157 .

(7) المنفى ج 1 ص 651 .

(8) رسالة في اغلاط العوام ورقة 122 .

اللحن على أن النحاة انفسهم قد خطاوا فيما بعد قول
النابغة الذبياني :

نبت كاني ساورتنني ضئيلة
من الرقش في انيابها السم نافع

وقالوا : كان حقه ان يقول (ناعما) لا (نافع)
فان النكرة لا تصف المعرفة .

وعلى كل حال فان كلمة «اللحن» قد تردت بين
العرب مع ظهور الاسلام فيما نقل عن عهد المبكر ، اذ
نقل ان الرسول (ص) قال : انا من قريش ، ونشأت
من بني سعد فاني لي اللحن ، ونقل عن الصديق (ص)
نوله : لان اقرا فاسقط احب الي من ان اقرا فالحن .
وكان قصة الكتاب المشهور الذي بعث به من العراق
ابو موسى الاشعري الى عمر بن الخطاب وجاء فيه
« من ابو موسى الاشعري » وما رد عليه عمر من قوله:
اضرب كاتبك سوطا واحدا واجز عطاه سنة (2) .

فان هذه الروايات المتناثرة - ان صححت - تدل
على معرفة اللحن في ذلك العصر وفيما قبل ذلك
العصر الاسلامي المبكر ، اذ ان استخدام اللفظة في
ذلك الوقت المبكر وفهم المقصود منها حينذاك قد
سبقه ما يسوغ هذا الاستخدام وذلك الفهم ، وفي
ذلك دلالة غير مباشرة على حدوث ذلك في الجاهلية
وان لم ينقل ذلك وتنقل مظاهره .

وحين تاخر الزمن قليلا - في عهد الامويين في
القرن الاول الهجري - اصبح اللحن قضية ذات
خطر في استعمال اللغة ، وهذا طبيعي اذ اتسعت
الدولة الاسلامية ، وكثرت دواعي الاختلاط بالاجانب
من الحرب والجوار والخدمة والمعايشة ، وجاءت من
ذلك روايات تصور مواقف حدث فيها اللحن بين
الخاصة وفي حضرة الخلفاء ، وهي لهذا السبب
نفسه استحقت الرواية والتناقل ، ولنا ان تخيل
الاطعنا الكثيرة مما لم ينقله احد او يعني به ، لانه كان
يحدث بين الناس العاديين من جمهرة العرب
والمسلمين ، واكبر الدلالة على ضخامة ذلك وكثرته انه
كان سببا في بداية النحو العربي حول النصف الاول
من القرن الاول الهجري على اختلاف الرواة فيمن
تنسب اليه تلك النشأة .

في مجالات المواقف الجادة من القول بين العلماء
والخاصة ، ويصح بناء على ذلك قبول ما رآه بعض
الدارسين من ان « المصوم » الذين اضيف اليهم
« اللحن » في كتب « لحن المصوم » هم مصوم
العلماء والخاصة ، فهو رأي يقبل من هذه الاخطاء
القليلة التي تتعلق بالتركيب والاصراب اما ليس
ذلك من مظاهر اللحن المتعلقة بالمعاني او بنية الكلمات،
وكذلك في هذا المظهر في اضافته الى العامة من
الناس العاديين ، فالغلب ظني ان كل ذلك كان شائعا
الى حد الكثرة ، وانه لم يكده القرن الثاني ينقضي
حتى تنوحت العاميات وكثرت الاخطاء بين الناس
العاديين والمتخصصين على سواء .

لكن : متى بدأ اللحن في الكلام العربي وكيف
تطور ؟

لا يستطيع الوصول الى حقيقة حاسمة من هذه
الظاهرة في العصر الجاهلي - شأنها في ذلك شأن
كثير من ظواهر اللغة والادب من هذا العصر - فان
كثيرا من شؤون الجاهلية تكاد تكون مطموسة
تماما ، او على الاقل غير مؤكدة ، اذ تعتمد على الظن
الغالب لا الادلة المتينة ، والغالب ان اللغة العربية في
العصر الجاهلي كان لها مستويات متعددة ، تختلف
فيما بينها باختلاف القبائل وعرف كل قبيلة في
لهجتها ، وان اللغة العامة التي كانت وسيلة التفاهم
بين الجميع حدث فيها احيانا اللحن والخطا ، ولو صح
ان الاهتمام باللغة ودراستها قد تقدم به الزمن الى
العصر الجاهلي ، لجاتنا كتب في «لحن العامة» من
هذا العصر كما حدث في القرن الثاني الهجري وما
تلاه حين نضجت الدراسة وتنوحت ، وكان اللحن احد
المظاهر التي اهتمت بها . وقد روى ان طرفة بن العبد
قال وهو صغير :

يا لك من قبرة بمممر
خلا لك الجو فيبيضي واصفري

ونقري ما شئت ان تنقري
قد رفع الفخ فماذا تحلدري

لا بد يوما ان تصادي فاصبري (1)

فما هو الوصف الذي كان من المتوقع ان يطلقه
النحاة على عبارة (ماذا تحلدري) غير الضرورة او

(1) بلوغ الارب في معرفة احوال العرب ج 3 ص 110 .
(2) انظر : مراتب النحويين ص 5 - 6 .

والمنف مع من يلحن في كلامه كما هو واضح في ذلك
الإنكار والردع من الحجاج لهند بنت أسماء - كما
تدل في الجانب المقابل على أن «الخلو من اللحن»
يمثل الجانب الشريف الذي يستحق به صاحبه
الفخر والثناء ، كما هو واضح من أسلوب الإعجاب
الذي يقرر به الاصمعي هذه الحقيقة عن الشمبي
وعبد الملك والحجاج وابن القرية .

فما روي من « مواقف اللحن » في القرن الاول
الهجري قد لابسه العار والاحتقار او الإنكار والردع ،
او استحقاق من يعري عنه الفخر وحسن الذكر مما
يفهم منه أن اللحن كان يمثل في ذلك الوقت أمرا
جديدا خطيرا ، او بعبارة أدق : أن شيوعه بين
الناس كان ظاهرة جديدة خطيرة يستحق من يبرأ منها
الثناء والشكران ، كما يستحق مرتكبها الزجر
والنكران .

فإذا ما تأخر الزمن الى القرن الثاني الهجري -
وبخاصة النصف الثاني منه وما تلاه - أصبح ما كان
احساسا بالخطر خطرا حقيقيا ملموسا ، وما كان
مواقف متناثرة تذكر فتنكر أمرا شائعا بين الناس من
غير تكيز ، وترتب على ذلك نشاط علمي متنوع ، ففي
رواية اللغة رحل العلماء للبادية ، وانصرفوا عن
الحضر بعد أن شاع فيه اللحن ، فلم تعد اللغة - في
نظرهم - أهلا للنقل والاحتجاج ، وفي الدراسة
اللغوية نشطت حركة التنقية التي بدأت في هذه
الفترة بكتاب الكسائي الذي لا يزال موجودا بين
أيدينا لأن من « ما تلحن فيه العامة »

* قال الرشيد يوما لبنيه : ما ضر احدكم لو
تعلم من العربية ما يصلح به لسانه ، أيسر احدكم أن
يكون لسانه كلسان عبده أو أمته (4) !! .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم
بكلام لحن فيه ، فقال جعفر بن يحيى : يا أمير
المؤمنين انه قد لحن . فقال الرشيد للفراء : اتلحن
يا يحيى ؟ فقال : يا أمير المؤمنين : إن طباع أهل
البدو الأعراب ، وطباع أهل الحضر اللحن ، فإذا
حفظت أو كتبت لم اللحن ، وإذا رجعت الى الطبع
لحنت ، فاستحسن الرشيد كلامه (5) .

* كان لخالد بن يزيد بن معاوية أخ ، فجاهه
يوما فقال : إن الوليد بن عبد الملك يعيبني
ويحتقري ، فدخل خالد على عبد الملك - والوليد
منده - فقال : يا أمير المؤمنين ، إن الوليد قد
احتقر ابن عمه عبد الله واستصغره - وعبد الملك
مطرق - فرفع رأسه وقال : (إن الملوك إذا دخلوا
قرية افسدوها - الآية) فقال خالد (وإذا أردنا أن
نهلك قرية - الآية) فقال عبد الملك : أفى عبد الله
تكلمني وقد دخل علي فما أقام لسانه لحننا !! فقال
خالد : أفعلى الوليد تمول !! فقال عبد الملك : إن كان
الوليد يلحن ، فإن أخاه سليمان ، فقال خالد : وإن
كان عبد الله يلحن ، فإن أخاه خالد - في كلام كثير
طويل (1) .

* تكلمت هند بنت أسماء بن خارجة ،
فلحنت وهي عند الحجاج ، فقال لها : اتلحنين وانت
شريفة في بيت قيس !! فقالت : أما سمعت قول أخي
مالك لامرأته الانصارية ؟ قال : ما هو ؟ قالت :
منطق صائب وتلحن أحيانا

وخير الحديث ما كان لحننا
فقال لها الحجاج : إنما منى أخوك اللحن في
القول - إذا كنى الحديث مما يريد - ولم يعن اللحن
في العربية فأصلحي لسانك (2) .

* وروي عن الاصمعي قوله : أربعة لم يلحنوا
في جد ولا هزل ، الشمبي وعبد الملك بن مروان
والحجاج بن يوسف وابن القرية ، والحجاج
افصحهم (3) .

والواضح من هذه الروايات الثلاث أنها جاءت
من شخصيات لها تميزها في العصر الأموي سواء من
حدثت منه أو من حدثت في حضرته أو من قبلت
منه ، ويعود هذا التميز الى أنهم من اصحاب الحكم
او من أهل العلم في العصر الأموي ، فكيف كان
الامر بين العوام من الناس ؟ ومع ذلك فإنها تدل على
العار والاحتقار اللذين يتعرض لهما من « يلحن » في
حديثه ، كما هو واضح في تلك الملاحظة الحادة بين
خالد بن يزيد وعبد الملك من عبد الله بن يزيد
والوليد ابن عبد الملك كما أن فيها دلالة على التشدد

(1) صبح الامشى ج 1 ص 168 .

(2) أمالي المرتضى - القسم الاول ص 15 .

(3) أمالي الزجاجي ص 20 .

(4) صبح الامشى ج 1 ص 168 .

(5) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

على طرق السابطة ، وبقرّب مجامع الاسواق (2) «
 وإذا كان اللحن قد امتد الى هؤلاء الاعراب والعلماء
 المتقمرين في نطق اللغة ، فلنا ان تصور ما كان بين
 عامة الناس الذين لا يجيدون اللغة بالطبع او بالصنعة .
 اما في القرن الرابع الهجري - الذي انهى في
 آخره الاستشهاد - فقد وصل الامر الى مده ، وطفى
 اللحن على الخاصة والعامة وعلى اصحاب الطبع في
 البادية واصحاب الصنعة في الحضر .

* يقول الامدي : والمتأخرون لا يكادون
 يسلّمون من اللحن ، وهذا في اشعارهم كثير جدا (3) .
 * ويقول ابو جعفر النحاس : وقد صار اكثر
 الناس يظن على متعلمي العربية جهلا وتمديا حتى
 انهم يحتجون بما يزعمون ان القاسم بن مخيمرة قال :
 النحو اوله شغل ، وآخره بني (4) .

والامدي وابو جعفر النحاس من علماء القرن
 الرابع الهجري الذين عاصروا فترة نهاية الاستشهاد
 باللغة الذي كان من اهم عوامله شيوع اللحن بين
 الناس حتى الشعراء انفسهم ، واصبح اللحن لا
 يكاد احد من المتأخرين يسلّم منه - كما يقول الامدي
 من معاصريه - وصار اكثر الناس يظن على متعلمي
 العربية جهلا وتمديا - كما يقول النحاس - ومن قبل
 كان تعلم العربية من الامور التي يتواصى بها الناس ،
 ويحض عليها الخلفاء والحكام ، وهكذا انقلب الامر ،
 فاصبح تعلم العربية من طريق الصنعة النحوية موضع
 سخرية الناس « والنحو اوله شغل وآخره بني » -
 تماما كما كنا نعيش اليوم في عصرنا الحاضر .

وليس من المفيد كثيرا ان نتابع تطور « قضية
 اللحن » بمد عصر الاستشهاد ، فقد اصبح « اللحن »
 هو القاعدة بين الناس في حياتهم العامة ، وتسرب
 الى التأليف العلمي نفسه ، كما هو واضح في بعض
 موسوعات التاريخ في القرن السادس وما بعده -
 وستأتي نماذج من ذلك - حتى قال احد المتأخرين
 « ان اللحن قد فشا في الناس والالسنة قد تغيرت ،
 حتى صار التكلم بالاعراب عيبا ، والنطق بالكلام
 الفصيح عيبا (5) » .

لماذا كان موقف علماء اللغة من هذه الظاهرة ؟

* وكان الرشيد مما يعجبه فناء الملاحين في
 الزلازل اذا ركبها ، وكان يتأذى بفساد كلامهم ولحنهم ،
 فقال : قولوا لمن معنا من الشعراء يعملوا لهؤلاء
 شعرا يفتون فيه ، فوجه الى ابي العتاهية - وهو
 سجين - فصنع لهم « زهديته » التي ابكت الرشيد
 حين سمعها منهم ، وفيها :

نح على نفسك يا مسكين ان كنت تنوح

لتموتن وان عمرت ما عمر نوح (1)

وقد اخترت هذه النماذج الثلاثة قصدا عن
 « عهد الرشيد » الذي عاصر الفترة الاخيرة من
 القرن الثاني ، وهي تدل على الامور الآتية :
 ان اجادة الفصحى اصبحت صناعة يحث
 الرشيد ابتناءه على الاخذ منها بما يصلح النسان كيلا
 يكونوا كمن يخالطونهم من العبيد والاماء في اللحن
 والخطا .

وان العلماء انفسهم كانوا يلحنون في حياتهم
 العادية ، ولم يروا ذلك هيبا يفض من شأنهم ، وقد
 اعترف بذلك الفراء قائلا « اذا حفظت او كتبت لم
 الحن ، واذا رجعت الى الطبع ، لحنن » ونال هذا
 الاعتراف استحسان الرشيد ، لانه الحقيقة .

وان العامة كانوا اشد من ذلك لحننا ، ويمثلهم
 هؤلاء الملاحون في الزلازل الذين يفتون على مقتضى
 طبيعتهم ، فيعجب فناءهم الرشيد لكنه يتأذى بفساد
 كلامهم ولحنهم ، فمنع من نفسه التأذي بتقديم الكلام
 الفصيح لهم لكن من السلي يمنع ذلك منهم او من
 غيرهم حين يفتون او يتكلمون في غياب الرشيد !!

وقد استمرت موجة اللحن قوية مندفعه ،
 واطرد نموها بتأخر الزمن ، فالقرن الثالث اقل حظا
 في الفصاحة من القرن الثاني ، وفي الجانب المقابل
 عظم اللحن اكثر من ذي قبل .

وقد روى الجاحظ نوادر كثيرة عن « اللحن في
 القرن الثالث » في كتابه البيان والتبيين مما سمعه
 ووصفه ، وعابه على من يتكلفون الفصاحة من علماء
 اللغة والاعراب ، فقال : « ان اقبح اللحن لحن اصحاب
 التعمير والتعميب والتشديق والتعطيط والجهورية
 والتفخيم ، واقبح من ذلك لحن الاماريب النازلين

(1) انظر : الالهاني ج 3 ص 171 .

(2) البيان والتبيين ج 1 ص 146

(3) الموازنة ج 1 ص 416 .

(4) صبح الامشى ج 1 ص 171 .

(5) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

وقد بدأت هذه المقاومة منذ القرن الثاني الهجري ، واستمرت فيما تلا ذلك من عصور والجدول الآتي « لكتب لحن العوام » ومؤلفيها - مما عرفته على قدر جهدي - يوضح ذلك :

لقد نظر علماء اللغة اليه من زاوية « الخطأ » فقاوموه بمنف ، ومع ذلك لم ينتصروا في معركتهم معه ، بل أن العكس هو الصحيح ، إذ انتصر اللحن بقلبة الاستعمال وقهر المجتمع اللغوي المتطور باستمرار .

الإشارة الى ما هو موجود	المؤلف وتاريخ وفاته	اسم الكتاب
مطبوع	(172) عني بن حمزة الكسائي	1 - ما يلحن فيه العوام
	(207) يحيى بن زياد الفراء	2 - ما يلحن فيه العامة
	(210) لابي عبيدة معمر بن المثنى	3 - ما يلحن فيه العامة
	(231) لابن نصر احمد بن حاتم الباهلي	4 - ما يلحن فيه العامة
مطبوع	(244) لابي السكيت يعقوب بن اسحاق	5 - اصلاح المنطق
	(248) لابي عثمان المازني	6 - ما يلحن فيه العامة
	(250) لابي حاتم السجستاني	7 - ما يلحن فيه العامة
مطبوع	(276) لابي محمد عبد الله بن مسلم بن قتيبة	8 - تقويم اللسان (ادب الكاتب)
	(290) لابي حنيفة احمد الدينوري	9 - لحن العامة
	(291) لابي العباس احمد بن يحيى ثعلب	10 - ما يلحن فيه العامة
	(300) لابي الهيثام كلاب بن حمزة العقيلي	11 - ما يلحن فيه العامة
	(377) هاشم بن احمد الحلبي	12 - اللحن الخفي
مطبوع	(380) لابي بكر محمد بن الحسن الزبيدي	13 - لحن العوام
	(395) لابي هلال العسكري	14 - لحن الخاصة
مطبوع	(501) عمر بن مكي الصقلي	15 - تثقيف اللسان
مطبوع	(516) لابي محمد القاسم بن علي الحريري	16 - درة الفواص
مطبوع	(539) لابي منصور الجواليقي	17 - تكملة اصلاح ما تفلط فيه العامة
مصور	(597) لابي الفرج عبد الرحمن الجوزي	18 - تقويم اللسان
مصور	(600) ابن هشام محمد بن احمد اللخمي	19 - لحن العامة
مصور	(727) محمد بن احمد بن جامع	20 - ناظر انسان عين الماني
	(733) لابن هاني محمد بن علي السبتي	21 - لحن العامة
مخطوط	(911) جلال الدين السيوطي	22 - غلطات العوام
مطبوع	(940) لابن كمال احمد بن سليمان	23 - التنبيه على غلط الجاهل والتنبه
مطبوع	(971) رضى الدين محمد بن ابراهيم الحنبلي	24 - بحر العوام فيما اصاب فيه العوام
مصور	(1000) مصطفى بن محمد خسرو زاده	25 - غلطات العوام
مطبوع	(1307) محمد صديق بن حسن البخاري	26 - لف القمط لتصحيح ما استعملته العامة
مصور	() (مجهول)	27 - افلاط العوام والخواص
مصور	() (مجهول)	28 - سقطات العوام
مطبوع	(1322) حسن توفيق العدل	29 - اصول الكلمات العامية
مطبوع	() حسن علي البدرابي	30 - تهذيب العامي والحرف

ملاحظات على مقاومة العلماء اللحن :

1 - بنظرة واحدة الى الجدول السابق الذي امكنني معرفة مافيه من كتب لحن العوام - الموجود منها والمفقود - يتضح ان مقاومة العامة كان شديدا في القرن الثاني والثالث والرابع ثم بدأ يقل تدريجيا بمد ذلك ، ولهذا دلالة ، حيث قاوم العلماء بقوة مظاهر اللحن في الفترة التي كانت اللغة موردا للدراسة ، والصلة قريبة بين المادة التي امتقدوا نقاوتها حين ترد من البادية ، وبين تنقية الفصحى المستخدمة في الحضرة قياسا عليها .

2 - كان من المفترض ان تعتمد التنقية على استقراء لاستعمال اللغة التي يماصرها المؤلف والتي تستعمل بين الناس في عصره ، ولكن الذي حدث - فيما اطلمت عليه منها - لم يكن كذلك ، بل اعتمد اللاحقون على جهود السابقين ، فكانوا ينقون غالبا ما اورده من سبقوهم في كتبهم وعلى سبيل المثال اعتمد ابن قتيبة في « تقويم اللسان » على ابن السكيت في « اصلاح المنطق » واعتمد الزبيدي في « لحن العوام » على من سبقه من العلماء ، فكان يذكر اسماءهم دون كتبهم - واعتمد ابن الجوزي في « تقويم اللسان » على كتب من سبقوه ، وذكر في مقدمة الكتاب انه جمع فيه ما رآه مبددا في كتب من سبقوه ، وانتخب من ذلك ما تم به البلوى دون ما يشذ استعماله ويندر ، ونقل السيوطي كتاب ابن الجوزي بومته ، ونسبه لنفسه تحت عنوان « غلطات العوام » .

3 - يلاحظ انه يقصد بالعوام والعامة فيما اطنمت عليه من تلك الكتب الناس العاديون بدليل النص احيانا على الخواص والخاصة ، ولكن الذي قصدوه بالتنقية هو اللغة الفصحى بعد ان أصبحت تستعمل في مستوى خاص ، وتسرب اليها « لحن العوام » فبقيت النسبة الى العوام ، وان كان المقصود بذلك ما حدث في اللغة الفصحى التي يستعملها الخاصة ، وبذلك نفهم قول الزبيدي (في مقدمة كتابه « لحن العوام » ص 8) « فهذا مما اسدته العامة عندنا ، فأحاولوا لفظه او وضعوه غير موضعه ، وتابعهم على ذلك الكثرة من الخاصة ، حتى ضمنتها

الشعراء الثعاعهم ، واستعمله جلة الكتاب ومنية الخدمة في رسالهم ، ولتأقوا به في محافلهم ، فرأيت ان أنبه عليه ، وأبين وجه الصواب فيه » .

وعلى ذلك فانه لا معنى للتكلف بتوجيه معنى (العامة) الى «عامة العلماء» كما حاول ذلك بعض الدارسين في العصر الحديث .

4 - تمنيت ان اجد في احد هذه الكتب حديثا من « اللحن » فكرة وموضوعا ، لكن لم تتحقق لي تلك الامنية في احدها ، اذ يتجه الحديث ليها مباشرة - بمد مقدمة قصيرة - الى ايراد الكلمات وبيان خطئها او صحتها امتناذاً منى النقل في غالب الاحيان كما سبق ذلك .

5 - ومع نظرة الى هذه الجهود الطيبة المخلصة في الجدول السابق - والى غيرها مما لم امره - يتساءل المرء : هل نجحت كل هذه الجهود في حل قضية اللحن ، وايقاف تياره المتدفق ؟

تسأل يتضح المقصود منه في الفقرة التالية ان شاء الله .

نظرة النحاة الى اللحن بين القواعد والاستعمال :

ان تحديد نظرة النحاة الى اللحن امر يسير لا يمر فيه ، فقد نظروا اليه من زاوية « الخطأ » واعتبروه انحرافا عن الطريقة الصحيحة التي ينبغي ان ياتي عليها النطق العربي السليم ، ولم يؤخذ في الاعتبار لديهم قوة الاستعمال وقهره ، وما يترتب على ذلك من تطور وتغير ، فان اللغة - شأنها شأن الظواهر الاجتماعية كلها - تتطور باستمرار في معانيها وبنيتها وتراكيبها ولا تخضع طويلا للقواعد المنسقة والنظام الجميل ، لان اللغة نظامها الذي يفرضه استعمالها بين المتكلمين بها ، وعمل الباحث اللغوي ملاحقة التطور لا مصادره ، وملاحظته لا تجميده ، فان المصادرة والتجميد لا يمكن تحقيقهما بالنسبة للغة نفسها ، وان امكن ذلك بالنسبة لدراستها ومن يدرسونها .

ونظرة النحاة لما اسماه « اللحن » من زاوية « الخطأ » كان سندها « القواعد الحادة » التي وضعوها والزموا انفسهم بها ، وان لم يستطيعوا فرضها على الاستعمال المتطور باستمرار .

ويمكن توضيح ذلك وتأيبده بالامور الثلاثة الآتية :

- 1 - جهود النحاة فى مقاومة اللحن ودورانها حول القواعد .
- 2 - خضوع النحاة انفسهم لسطوة اللحن مع انهم حراس القواعد .
- 3 - التصاعد الذى قام - واستمر قائما - بين القواعد المصنوعة وواقع الاستعمال .

لقد ارتبطت بداية النحو بحدوث اللحن ، والروايات التى رويت عن ذلك كلها تقر هذه الفكرة صراحة او تمثيلا بوصف صورة النطق الملعون فيه والذي كان الدافع المباشر لوضع القواعد، ويبدو ان هذه الصلة بين القواعد واللحن فى فترة البداية ظلت قائمة بعد ذلك مع تقدم الزمن ونضج الدراسة ، وهى صلة قوامها التنافس بين القواعد وما خرج من هذه القواعد من مظاهر اللحن ، على ان تكون القواعد - من وجهة نظر النحاة - هي الحكم فى هذه المظاهر ، او بعبارة اخرى ان القواعد هي « الصواب » وان ما لا يتفق معها من مظاهر الاستعمال هو « الخطأ » .

* قال ابن سلام : اضطرب كلام العرب ، فغلبت السليقة ولم تكن نحوية ، فكان سراة الناس يلحنون ، ووجوه الناس ، فوضع ابو الاسود باب الفاعل والمفعول به والمضاف وحروف الجر ، والرفع والنصب والجزم (1) .

* وروى القفطى عن ابي الاسود قال : دخلت على امير المؤمنين علي - عليه السلام - فاخرج لي رقعة فيها (الكلام كله اسم وفعل وحرف جاء لعنى) قال : فقلت : ما دعائك الى هذا ؟ قال : رايت فسادا فى كلام بعض اهلي ، فاحببت ان ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطا ، فاخذ ابو الاسود النحو من علي - عليه السلام - ولم يظهره لاحد (2) ، ثم اظهره ليما بعد .

وينبغي التوقف فى فهم هاتين الروايتين عن نشأة النحو عند عبارتين فيهما هما (غلبت السليقة ولم تكن نحوية) و (رايت فسادا فى كلام بعض اهلي فاحببت ان ارسم رسما يعرف به الصواب من الخطا) فان هاتين الروايتين تؤيدان ما نزعناه عن طبيعة الصلة بين القواعد والسليقة غير النحوية التى يطلق عليها « اللحن » منذ البداية ، واتخاذ القواعد - منذ البداية ايضا - سلطة للتمييز بين « الصواب والخطا » كما قال - عليه السلام - ان صحت نسبة الرواية الثانية .

وقد بقي هذا الفهم نفسه قائما على مدى الزمن ، اذ طبقة الدارسون ، وخضع له الناطقون بل ازداد مع تقدم الزمن قوة وثباتا ، وفى الوقت نفسه اطرده نمو طرفي القضية من « القواعد » و « السليقة غير النحوية » فزادت مؤلفات النحو تضخما ، وفى الجانب المقابل كان اللحن يزداد انتشارا ، وحين الف سيبويه « كتابه » كان اللحن فى الحضر خطرا صرف العلماء عن لغته الى البداية .

كما انه بالاطلاع على الكتب التى الفت نصا فى مقاومة اللحن - مر جدول عرضها فى الفقرة السابقة - يتضح فيها هذا الفهم نفسه الذى يجعل القواعد مقياسا للصواب فيما رسم باللحن والخطا من معاني الكلمات وينبئها وتراكيبها ، ويتبين ذلك فى طريقة العرض او فى ذكر القواعد احيانا لتصحيح الخطا .

* قال الكسائي : وتقول : شكرت لك ونصحت لك ، ولا يقال : شكرتك ونصحتك وقد نصح فلان لفلان وشكر له ، هذا كلام العرب (3) .

* وقال ابن السكيت : باب ما جاء على (فعلت) بالفتح مما تكسره العامة او تضمه يقال (ما عسيت ان اصنع) قال الله جل ذكره (فهل عسيتم ان توليتم) ولا ينطق منها باستقبال (4) .

* وقال الحريري : يقولون : انضاف الشيء اليه وانفسد الامر عليه (وكلا اللغتين ليستا من كلام

- (1) طبقات فحول الشعراء ص 12 .
- (2) انباه السرواه ج 1 ص 5 .
- (3) ما تلحن فيه العامة ص 25 .
- (4) اصلاح النطق ص 188 .

العرب ، وإنما يقال (اضيف الشيء اليه ولسد الامر عليه) فلا يأتي منهما ذلك (1) .

فهذه نماذج يتبين منها كيفية الطريقة التي سلكها العلماء في جهودهم لمقاومة اللحن ، وإذا كان الكسائي يصحح الخطأ قائلا (هذا كلام العرب) فابن السكيت والحريري يذكران « القواعد » مقاييس التصويب للاستعمال الموسوم بالخطأ واللحن ، فقامدة ابن السكيت في المثال السابق هي « ما جاء على فطت بالفتح مما تكسره العامة او تضمه » وقامدة الحريري « المطاوعة تأتي من الثلاثي المتعدي ، أما الثلاثي اللازم فلا يأتي منه ذلك .

هذا هو طابع الجهد الذي بذل في مقاومة اللحن ، يلخصه انه « التمسك بالقواعد اساسا للتصويب ، وإيراد ما لا يوافق من مادة اللغة للحكم عليه بالتخطئة »

أما الامر الثاني الذي يدل على سطوة القواعد على اذهان الدارسين بمقدار ما يدل على سطوة الاستعمال على السنة المتكلمين فيمثل تلك المفارقة الطريفة من أفراد من علماء النحاة نسب الى بعضهم انه كان يتقعر ويغرب في حديثه على الناس حتى لا يكاد يفهم ، ونسب الى البعض الآخر انه كان يلحن في كلامه ، وربما اعترف أحيانا بوقوع ذلك منه ، ولم يعتبره شيئا يفض من شأنه .

وعلى الرغم من أن هذين المظهرين يمثلان طرفين متباينين في الكلام فان النظرة المدققة تكشف انهما يصدران من ظرف لغوي واحد هو « سطوة الاستعمال » الذي وصفه ابن سلام بقوله « غلبت السليقة ، ولم تكن نحوية » فقد دلح ذلك بعض النحاة التي التظاهر أحيانا من التمكن من تلك السليقة النحوية : فأهربوا في حديثهم ولغموه ، واستسلم آخرون للاستعمال اللغوي الشائع ، فخضعوا له معترفين بأنه الواقع وان خالف قوانين النحو وقواعد الاعراب .

ومن النحاة الاول الذين روي عنهم التقصير والاعراب عيسى بن عمر الثقفي (ت 149) الذي روي عنه ذلك في كتب الطبقات التي ترجمت له ، ومن ذلك هذا الموقف الطريف الذي كان يضرب فيه بالسياط لوديعه أضاعها وهو يصيح قائلا : « والله

ما كان الا ايبابا في اسيفاط قبضها مشارولا (2) » وروي ذلك أيضا عن أبي علقمة النحوي الذي ساق السيوطي منه المشهد الطريف التالي :

* مر أبو علقمة يوما على عبد حبشي وصقلي ، فاذا الحبشي قد ضرب بالصقلي الأرض فادخل ركبتيه في بطنه ، وأصابه في عينيه ، وهض اذنيه ، وضربه بمصا فشجه ، وأسال دمه ، فقال الصقلي لابي علقمة : اشهد لي ، فمضوا الى الامير : فقال له الامير : بم تشهد ؟! فقال : اصلى الله الامير ، بينا انا اسير على كودني ، اذ مررت بهذين العبدين ، فرأيت الاسحم قد مال على هذا ، لا يتبع ، فحطاه على فدفد ، ثم ضغطه برضفتيه في احشائه ، حتى ظننت انه تدعج جوفه ، وجعل يلج بشنائه في جحمتيه يكاد يفتؤهما ، وقبض على صناريه بيديه ، وكاد يحدهما ، ثم علاه بمنسأة كانت معه ، فمجنفه بها ، وهذا اثر الجريان عليه بينا .

فقال الامير : والله ما فهمت مما قلت شيئا .

فقال أبو علقمة : قد فهمناك ان فهمت ، واعلمناك ان علمت ، وأدبت اليك ما علمت وما اقدر ان اتكلم الفارسية .

فجهد الامير في كشف الكلام حتى ضاق صدره ، ثم كشف الامير راسه ، وقال للصقلي : شجني خمسا ، واعفني من شهادة هذا (3) .

وقد يشير هذا المشهد ابتسامة الشفقة على ابي علقمة الذي يحمل نفسه هذا الجهد الثقيل من التقعر والاعراب ، امام الامير الذي يعاصره ولكنه لا يستطيع فهم كلامه ، لانه يمثل الاستعمال العادي للكلام ، ومع ذلك فان لابي علقمة من ظروفه الخاصة ومن ظروف عصره ما يقدم له المصدر في طريقته الفريية ، فهو نحوي قام في نفسه ان الكلام العادي داخله الفساد ، ومن حقه ان يستعمل طريقة توالق لغة النحو التي يستنبط منها قواعد .

أما لحن علماء النحو في حياتهم المادية واعترافهم بذلك ، فهو مظهر مهم ، اذ ان في هذا الاعتراف نفسه دلالة على سطوة الاستعمال حتى

(1) درة الفواص ص 22 .

(2) معجم الإدياء ج 16 ص 149 .

(3) بنية الوعاة ج 2 ص 139 .

على النحاة الذين يناصبون القواعد ، ويفرضون سلطانها على الاستعمال اللغوي .

* اورد الاصفهاني ان مروان بن ابي حفصه وجه كلامه لحماة الرواية في حضرة الوليد بن يزيد فقال : ما كلام هذا في مجلس امير المؤمنين وهو لحانة !! فتهاقت الشيخ ، ثم قال : يا ابن اخي ، انا رجل اكلم العامة ، واتكلم بكلامها (1) .

* ودخل الفراء يوما على الرشيد ، فتكلم بكلم لحن فيه ، فقال له جعفر بن يحيى : يا امير المؤمنين انه قد لحن ، فقال الرشيد للفراء : اتلحن يا يحيى !! فقال : يا امير المؤمنين ، ان طباع اهل البدو الاعراب وطبعا اهل الحضرة اللحن ، فاذا حفظت او كتبت لم اللحن ، واذا رجعت الى الطبع لحننت ، فاستحسن الرشيد كلامه (2) .

* وقال ابو الطيب اللغوي : كان على المدني لا يغير الحديث وان كان لحننا ، الا ان يكون من لفظ النبي (ص) فكانه يجوز اللحن على من سواه (3) .

فهذه المواقف المتناثرة - على قلتها - قد اعترف فيها بعض النحاة على انفسهم باللحن وانهم يخضعون له جريا على استعمال بقية الناس ، لكنهم في مجال الدراسة ، لم يأخذوا ذلك في الاعتبار ، بل حكموا القواعد في ذلك ، وحكموا على مظاهر اللحن بالخطا

اما الامر الثالث والاخير - فيما نحن بصدده - فهو التصدع بين القواعد المصنوعة واستعمال اللفظة ؛ وهذا امر حدث مبكرا ، ونقلت اليها بعض نماذج في المشاحنات التي كانت تحدث بين العلماء والشعراء ، ومن ذلك ما حدث بين ابي اسحاق والفردق وبين الاخفش وشار وبين ابن خالويه والتمثبي - ونماذجه اشهر من ان تذكر - وفي هذه المواقف - على قلتها - يتمثل ايضا الصراع بين القواعد في يد النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يخضع لتلك القواعد .

وإذا كانت تلك المواقف القليلة تمثل هذه الظاهرة فقط ، فان واقع الامر اخطر من ذلك وأكثر ، اذ ان مظهر الصراع بين القواعد التي استمسك بها النحاة والاستعمال اللغوي الذي لا يتوافق مع تلك القواعد - على الاقل منذ القرن الثاني الهجري - ترتب عليه

اتساع الهوة دائما بين طرفي القضية ، فعانى النحاة من ذلك قديما ، وما زالت هذه المعاناة قائمة حتى اليوم .

اخيرا :

يتضح من عرض الامور الثلاثة السابقة لموقف النحاة مما اطلق عليه « اللحن » تأييد ما افتتحت به هذه الفقرة من رؤياهم له من زاوية « الخطا » وان الذي وجه هذه الرؤية هو مقياس (القواعد لا الاستعمال) وضع ذلك في جهودهم اللغوية ، وبعض مواقف حياتهم الشخصية ، وفي هذا الفراق والخصومة القائمة بين كلا الامرين القواعد والاستعمال .

تلك وجهة نظرهم ، اما مدى توفيقهم فيها ، فله حديث آخر في القسم الاخير من هذا البحث ان شاء الله .

— * —

« التصحيف والتحرير »

معنى التصحيف والتحرير وعلاقتها باختلاف المعنى والبنية والاعراب :

« التصحيف والتحرير » لفظتان بينهما صلة حميمة ، وقد جمعهما العلماء احيانا عنوانا لمؤلف واحد ، كما فعل ابو احمد السكري في مؤلفه « شرح ما يقع فيه التصحيف والتحرير » وكما فعل من بعده الصفدي في كتابه الموسوعي « تصحيح التصحيف وتحرير التحريف » وقد شرح « التهانوي » في « كشاف اصطلاحات الفنون » المقصود منهما في مكان واحد .

وتعود الصلة بين اللفظتين - مع التجاوز منها فيهما من جنبات لفظي - الى ان مجال البحث فيهما - كما فهمه المتقدمون من العلماء - واحد ، وهو البحث من الخطا الذي يحدث في نطق الكلمة العربية نتيجة الخطا الاملائي في قراءة الحروف المكتوبة ، سواء اكان الخطا في نطق الحروف او شكلها او تبادلها الامكنة .

فالتصحيف والتحرير مظهران للخطا في قراءة الخط المكتوب ، ويترتب على ذلك نطق كلمة جديدة

(1) الاثاني ج 14 ص 110 .

(2) صبح الامشى ج 1 ص 173 .

(3) مراتب النحويين ص 6 .

قد تكون صحيحة لفة ومعنى ، لكنها غير الكلمة التي قصدنا صاحبها حين نطق بكلامه ، أو نطق كلمة ذات بنية معرفة في صيغتها ، ويرجع احرافها الى التغيير في حروفها أو الشكل الداخلي لها ، بل ان مؤلفات « التصحيف والتحريف » قد ورد فيها أحيانا أمثلة - وان كانت قليلة - لاختلاف اعرابية تعود أيضا الى الخطأ في الكتابة أو التوسع في فهم ما يطلق عليه « التحريف » بما يشمل ما يطلق عليه اسم « اللحن » ويتضح هذا المظهر الأخير في كتاب الصفدي (ت 764) « تصحيح التصحيف وتحريف التحريف » إذ اورد كثيرا من أمثلة « اللحن » في كتابه ، ويؤيد هذا نصا ما أورده في بداية كتابه من انه نقله من السابقين عليه ، وقال « لم يكن لي في هذا غير التهذيب وحسن الصرف في التيوب الا ما يتخلل انحاء ذلك من تفسير وتقييد وتقرير وتمهيد » وقد عدد ما اعتمد عليه من كتب السابقين ، وكان منها ما هو نص في « لحن العوام » مثل « ما لحن فيه العامة » للزبيدي ، و « تثقيف اللسان » لابن مكى و « درة الفواص » للحريري ، و « تقويم اللسان » لابن الجوزي الخ . . فما صنعه الصفدي يحتمل امرين ، الرغبة في تضخيم كتابه فأورد فيه ما يتعلق « باللحن » أيضا وان لم يكن من « التصحيف والتحريف » أو التوسع في فهم المقصود « بالتحريف » بما يشمل اللحن أيضا ، وسواء اكان هذا أو ذاك ، فان ما يهم في هذا الموضوع ان الصفدي قد اورد في كتابه كثيرا من أمثلة « اللحن » وان غيره من سابقيه قد ورد ذلك عنهم على قناعة .

التي رويت امثلتها من علماء القرن الثاني الهجري مما نقلته ابنا كتب الادب العامة أو الكتب المؤلفة نصا في موضوع « التصحيف والتحريف » فيما بعد ، وقد جاءتنا هنا وبين تلك المؤلفات مقتصرزة على تلك اللفظة وحدها واقدماها - فيما اعلم - ما صحف فيه الكوفيون لنصولي (ت 335) و « التنبيه على حدوث التصحيف » لحمزة بن الحسن الاصهاني (ت 360) ويبدو ان كلمة « التصحيف » استخدمت وحدها اولا في وصف خطأ القراءة لما هو مكتوب ، ثم انضمت اليها فيما بعد كلمة « التحريف » مع تداخل المقصود منهما أو تخصيص كل واحدة منهما بنوع من خطأ القراءة كما سيتبين بتفصيل فيما بعد .

هذه مقدمة عامة عن لفظتي « التصحيف والتحريف » من حيث الصلة بين معنيهما واستخدام العلماء لهما ، لندرج من ذلك الى بيان الامور الآتية عن هذين المظهرين من مظاهر الخطأ في اللغة من وجهة نظر علمائنا الاقدمين :

- 1 - التحديد النظري لمعنى التصحيف والتحريف .
- 2 - سبب وقوع ذلك في الكتابة العربية خاصة .
- 3 - علاقة مظاهر الخطأ التي تربت على ذلك في المعنى والبنية والاهراب والبحث في اللغة مع انها تعود اصلا الى رسم الكتابة .

قبل سوق ما ذكره العلماء عن معنى « التصحيف والتحريف » ينبغي اولا معرفة انواع التغيير التي يمكن ان تحدث في قراءة الكتابة العربية ، ويترتب عليها رواية خاطئة ، وهي اربعة يوضحها للجدول الآتي :

لكن « ليس معنى ما تقدم ان كل واحدة من اللفظتين « التصحيف والتحريف » لم تكن تستخدم الا ومعها الاخرى ملازمة لها ، فان لفظ « التصحيف » استخدمت وحدها كثيرا في مواقف الخطأ في القراءة

تغيير في الازراب	تغيير في الحروف		تغيير في الحركات		تغيير في النقط	
	تغييرها	الكلمة	تغييرها	الكلمة	مقابها	الكلمة
لو قرأ قاريء في الصحف (ان الله يسير)	الماء	البايس	جمهور	جمهور	النوم	الثوم
المشركين ورسوله	بغمان	بغمان	دمشق	دمشق	الفصل	العسل
يكسر اللام في (رسوله)	راجل	رجل	عفريت	عفريت	رجل	رحل
	بن الله	بن الله	رصاص	رصاص	غم	غم
	وجيل	وجيل	قنديل	قنديل	القاضية	القاضية
	شواته	سراينة				

وهذه النماذج السابقة قد ورد لها مواضع ونصوص تؤيدها ليس هنا مجال ذكرها ، فان القصد من ذكرها هنا ايضاح انواع التغيير تمهيدا لايراد آراء العلماء من التصحيف والتحريف .

* قال حمزة الاصفهاني : اجاب اهل المعاني في معاني التصحيف فقالوا : ان يقرأ الشيء بخلاف ما اراده كاتبه ، وعلى غير ما اصطلح عليه في تسميته ، واما لفظ (التصحيف) فان اصله ، - فيما زعموا - ان قوما كانوا اخذوا العلم عن الصحف من غير ان يلقوا فيه العلماء ، فكان يقع فيما يروونه التغيير ، فيقال عندها : قد صحفوا فيه ، اي : رووه عن الصحف ، ومصدره (التصحيف) مفعوله (مصحف) فاما (المصحف) فمأخوذ من (اصحف اصحافا) واصله ان الصحف جمعت فيه ، فقيل : قد اصحف - ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز (1) .

* قال ابو احمد العسكري : فاما معنى قولهم (الصحفي والتصحيف) فقد قال الخليل : ان الصحفي الذي يروي الخطأ على قراءة الصحف باشباه الحروف . (2)

* قال المراكشي : المخالفة في الحديث ان كانت بتغيير حرف او حروف مع بقاء صور الخط ، فان كان ذلك بالنسبة للنقط فالمصحف ، وان كان بالنسبة للشكل فالمحرف . . واما اللحن فلما يرجع للاعراب (3)

* قال التهانوي : قالوا : مخالفة الراوي للثقات ان كانت بتغيير الحروف او الحروف مع بقاء صورة الخط في السياق ، فان كل ذلك بالنسبة الى النقط يسمى ذلك الحديث (مصحفا) وان كان بالنسبة الى الشكل والاعراب سمي (محرفا) - وابن الصلاح وغيره سمي القسمن (محرفا) . (4)

ومن هذه الروايات الاربعة لا يخرج المرء بتحديد حاسم موحد للمقصود بكل من التصحيف والتحريف ،

ولا يخرج كذلك بتحديد حاسم لما يشملته التصحيف والتحريف من انواع التغيير السابقة اذ ان الذي يفهم من حديث الاصفهاني والمسكري عن (التصحيف) انه كما قال اولهما نصا « ولو سمي التصحيف تغييرا او تبديلا جاز » فهو اذا مطلق تغيير او تبديل في قراءة الشيء على غير ما اراده كاتبه - كما عرفه الاصفهاني - او رواية الخطأ على قراءة الصحف باشباه الحروف - كما عرفه السكري رواية عن الخليل - سواء اكان ذلك في النقط او الشكل او الحروف .

لكن المراكشي يفرق فيما تناوله من التغيير الذي يحدث للحديث بين التصحيف والتحريف ، بان اولهما يكون في تغيير النقط فقط ، واما ثانيهما فيكون في الشكل ، ويتوقف عند هذا الحد ويزيد عليه التهانوي ان التحريف يكون في الشكل والاعراب ايضا ، وان بعض العلماء يسمي كل ما يحدث له تغيير « محرفا » .

والحقيقة ان المطلع على نماذج التصحيف والتحريف في مصادرها يلاحظ ان الامثلة التي ترد عن ذلك يتنوع التغيير فيها دون ان ينص على ان هذا تصحيف وذاك تحريف وان منها ما يتعلق بتغيير النقط او الشكل او الحروف واحيانا الامراب .

ومن كل ذلك نستخلص الامور التالية دون تحديد حاسم :

اولا : ان كلا من التصحيف والتحريف يطلقان على رواية الخطأ الناتج عن قراءة الرسم العربي ويدلان على مطلق التغيير والتبديل فيما يتعلق بذلك .

ثانيا : يكاد يكون من المتفق عليه ان التغيير الذي يحدث في النقط والشكل والحروف املايا يندرج تحت « التصحيف والتحريف » اما التغيير في الشكل الامرابي فالظاهر انه خارج عن هذا الموضوع ، فنماذجه قليلة في كتب المتقدمين الخاصة بالتصحيف والتحريف وان اكثر الصفايدي - وهو متأخر - من

- (1) التنبية على حدوث التصحيف ص 36
- (2) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 13
- (3) منح المغيث في جواز اللحن في الحديث ص 5
- (4) كشف اصطلاحات الفنون ج 3 ص 836 .

هذه النماذج في كتابه « تحرير التحريف » لأنه اعتمد فيه على كتب لحن العوام ، ونقل منها ما ضخم به كتابه .

ثالثا : ان كلمة « التصحيف » في هذا النوع من الخطا ذات شهرة تفوق في ذلك كلمة « التحريف » وربما كان ذلك لقرب دلالتها على هذا النوع وارتباطها بسببه الذي هو القراءة من الصحف .

رابعا : الفرق بين « التصحيف والتحرير » و « اللحن » ان النوع الاول يتعلق بالخطا المترتب على قراءة الخط ، اما الثاني فمتشبه خطأ النطق لعدم اجادة اللغة .

لكن ما هو السبب او الاسباب التي جعلت هذه الظاهرة تحدث في رواية اللغة ؟!

والاجابة على ذلك بمباراة مختصرة هي « يرجع السبب الاساسي في ذلك الى الخط العربي وقابليته للتصحيف » ذلك ان حروفه متشابهة يميز بينها النقط التي توضع فوقها او تحتها كما ان التمييز بين صيغ الكلمات يعتمد على الحركات التي اصبحت تابعة للحروف ، ولم تعتبر في الرسم العربي حروفا مستقلة ، بل رسمت اولا تقطعا فوق الحروف وتحتها وبين يديها ولما حدث الامجاء - وهو تقطع كذلك - ومع تقدم الزمن ، أحدث الخليل بن احمد رسمها ابعاضا للحروف ، كما هي الصورة المستعملة حتى اليوم .

فالخط العربي في البداية لم يكن منقوطة ولا مشكولا ، كما حدث ذلك في المصاحف الخمسة التي كتبها عثمان للامصار ، واستمر الناس يقرؤون فيها - على هذه الصفة - ما يقرب من نصف قرن من الزمان ، وفي عهد عبد الملك بن مروان - حين كثرت الخطا والتغيير - وضع نصر بن عاصم - فيما يقال - النقط على الحروف للدلالة على ما سمي فيما بعد « بالشكل » ثم كان الامجاء الذي يميز بين الحروف المتشابهة كالجيم والحاء مثلا ، وكانت نقط الشكل تباين في شكل المداد نقط الامجاء ، واستمر الامر كذلك على ما فيه من مشقة - الى ان أحدث الخليل - فيما يقال - الشكل الذي يرسم على هيئة ابعاض الحروف فاراح الناس بذلك من مشقة الكتابة بنوعين من النقط .

فطريقة الرسم العربي في تشابه حروفه وتمييزها بالنقط وضبط نطقها بحركات - لم يكن لها رسم خاص بها مطلقا ، ثم رسمت منفصلة وتابعة

للحروف العربية - يعود اليها المسؤولية الاولى من ظاهرة « التصحيف والتحرير » .

ومع ذلك فقد عاون على اشاعة هذه الظاهرة وخطرها « النساخ » الذين يسمون « بالوراثين » اولئك الذين تنحصر جهودهم في احترام الوراثة لنسخ الكتب العلمية وبيعها للناس ، ولم يكن النساخ والوراقون غالبا على علم باللغة ، حتى يتمكنوا من التمييز بدقة بين كلمة وكلمة يعتمد التمييز بينهما على نقطة او حركة او تغيير أحد الحروف ، وحينئذ يحدث الخلط بين ذلك في الكتابة ، وهذا نفسه معنى التصحيف والتحرير .

ويشارك في هذه المسؤولية ايضا - على قلة - علماء اللغة انفسهم ، فان احدهم قد يفهم الكلمة فهما خاما يسوفه السباق له ، او يسوفه هو لنفسه ، ثم يقرأها ويرونها كما فهم وان لم يتفق ذلك الفهم مع اصلها وما قصدته منها صاحبها ، ويترتب على ذلك ايضا حدوث التصحيف ، وما يؤدي ذلك عناية مؤلفات « التصحيف والتحرير » بايراد تصحيحات العلماء في نسم خاص بهم ، بل ان بعض هذه المؤلفات يفرق بين البصريين والكوفيين في ذلك ، فيذكر أشهر العلماء من الفريقين مع ذكر نماذج من تصحيحات كل واحد منهم ، وأول اثر في هذا الموضوع - فيما اعلم - هو كتاب الصولي ، وعنوانه « ما صحف فيه الكوفيون » وقد أورد حمزة الاصفهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » نسا خاصا للعلماء سماه « تصحيحات العلماء في شعر القدماء ص 68 وما بعدها » وعدد من علماء المصريين خمسة وعشرين عالما ، فأورد نماذج من تصحيحاتهم ، وفعل مثل ذلك ابو احمد العسكري ، فجعل نسا خاما لـ (ما وهم فيه علماء البحرين) ونسا آخر من « ما وهم فيه علماء الكوفيين » .

لهذه الامور الثلاثة السابقة - الرسم العربي والنساخ وهم العلماء - يعود اليها مجتمعة مسئولية « التصحيف والتحرير » وان كان الرسم الكتابي اعظمها مسئولية في ذلك .

✽ قال حمزة الاصفهاني : الذي ابدع صور حروف كتابة العرب لم يفهمها على حكمة ، ولا احتاط لمن يجيء بعده وذلك انه وضع لخمسة احرف صورة واحدة ، وهم (الباء والتاء والثاء والياء والنون) .

وجه الحكمة فيه أن يضع لكل حرف صورة مبانسة
للاخرى حتى يؤمن عليه التبديل. (1) .

* وقال الجاحظ عن تحريف النساخ : لربما
اراد مؤلف الكتاب أن يصلح تصحيحا او كلمة ساقطة
فيكون انشاء عشر ورفات من حر اللفظ وشريف
المعاني يسر عليه من امام ذلك ذلك النقص ، حتى
يرده الى موضعه من اتصال الكلام ثم يصير هذا
الكتاب بعد ذلك نسخة لانسان آخر فيفسر فيه الوراق
الثاني سيرة الوراق الاول ، ولا يزال الكتاب تتناوله
الايدي الجانية والامراض المفسدة حتى يصير غاطا
صرفا وكذبا مصمتا (2) .

* وقال ابو احمد المسكري : فلاحتراس من
التصحيف لا يدرك الا بعام عزيز ورواية كثيرة وفهم
كبير وبمعرفة مقدمات الكلام وما يصلح أن يأتي بعدها
مما يشاكلها ، وما يستحيل مضامته لها ومقارنته بها ،
ويمتنع من وقوعه بعدها ، وتمييز هذا مستعصب
عسر (3) .

فهذه النصوص الثلاثة متجمعة تحتوي على
العوامل التي يحدث بها التصحيف والخطأ في رواية
اللغة بناء على ذلك ، وأخطرها ما ذكره الاصهاني من
« اتخاذ الصورة الواحدة في الكتابة للدلالة على
الحروف المتعددة » وهذا - في فهمي - نموذج للشباب
بين الحروف في الصورة .

ترتب عليه التفسير والتبديل الذي هو معنى
التصحيف والتحريف بصورة عامة تشمل هذا النموذج
وغيره من مظاهر التفسير في الكتابة .

والجاحظ يصور بمرارة واسف ما يحدث
للنصوص والمؤلفات من جنابة ونساذ بسبب تداولها
بين النساخ - ومن ذلك التحريف طبعا - وما يعانیه
المؤلف - ومثله المحقق - من مشقة اذا اراد اصلاح
ما فيد او اكمال ما نقص .

و ضمانات الاحتراس من التصحيف تلخص
- من النص الاخير - في كثرة الرواية وسعة الفهم
واليقظة لسياق الكلام اوله وآخره ، وكل ذلك - كما

قال المسكري - مستعصب عسر حتى على العلماء ،
ولا غرابة اذن في حدوث التصحيف منهم .

اما الفكرة الثالثة والاخيرة في هذه الفقرة فهي
بيان الصلة بين خطأ التصحيف والتحريف - الذي
يرجع في نشاته اساسا الى الرسم الكتابي - والبحث
في اللغسة .

ان الذي يرد على الذهن لاول وهلة ان هذا النوع
من الخطأ يتعلق بالرسم الاملائي وقصور الكتابة
العربية ، وينبغي بحثه في هذا النطاق ، ولا شأن لذلك
بدراسة اللغة التي تنجبه أصلا الى النطق لا الكتابة ،
ويتفرع على ذلك ان الخطأ الذي يوجه باحث اللغة اليه
اهتمامه هو خطأ اللغة حين تنطق ، أما الخطأ الذي
ينود للكتابة ، فيتكفل به ما سماه ابن قتيبة في كتابه
« ادب الكاتب » تقويم اليد .

ذلك امتراض وارد ، وفيه كثير من الحق ، فان
قضية التصحيف والتحريف تعود الى الرسم العربي
قبل أي شيء آخر ، ولو كان الامر مقتصر على ذلك
ما كان لها مكان في البحث عن الصواب والخطأ في
اللغة ، لكن خطأ الكتابة لم يقتصر عليها ، بل تعدى
ذلك الى اللغة المنطوقة ، وبدا ذلك في مظهرين :

الاول : ان رواية اللغة مشافهة كان لها صلة
قوية بالكتابة .

الثاني : ان قراءة الكتابة - وهي نطق - حملت
اخطاء التصحيف والتحريف في معاني الكلمات وبنياتها،
بل ومخالفة قواعد النحو أحيانا .

ان رواية اللغة بطريقة علمية منظمة بدأت نشاطها
في القرن الثاني الهجري ، وأول الرواة العلماء - فيما
هو مشهور - أبو عمرو بن العلاء (ت 154) وحماد
الرواية (ت 155) ، وقد عاصروهم وجاء بعدهم رواية
اللغة الذين يعود الفضل الى جهودهم الرائدة في جمع
التراث اللغوي القديم كله ، ومن المعروف ان هؤلاء
العلماء الرواة لم يقتصروا في رواية اللغة على ما
عاصروهم فقط ، بل رووا الكثير عن العصور التي
سبقتهم في الجاهلية والاسلام مما لم يعاصروه ، ولم
يسموا قائله ، وقد وصلهم ذلك من طرق متنوعة كان

(1) : التشبيه على حدوث التصحيف من 36 .

(2) : انظر : العيون ج 1 ص 79 .

(3) : شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف من 2 .

اهمها - كما قرر ذلك الباحثون في العصر الحديث (1) - ما كان مدونا بالرسم الكتابي وما دامت الكتابة لنصوص اللغة كالت مصدرنا للرواية الشفهية التي تظاهر بها العلماء ، فقد انعكس خطأ التصحيف والتحرير بداهة على تلك الرواية الشفهية نطقا وقد اورد حمزة ابن الحسن الاصبهاني في كتابه « التنبيه على حدوث التصحيف » عبارة منطقية من ارسطو تقول « كل كتابة تتشابه صور حروفها ، فهي على شرف تولد السهو والغلط والخطأ فيها ، لان ما في الخط دليل على ما في القول ، وما في القول دليل على ما في الفكر وما في الفكر دليل على ما في ذوات الاشياء » (2) ويصح فهم معنى هذه العبارة بطريقة اخرى بان نقول : ان ما في ذوات الاشياء يعكس على الفكر ، وما في الفكر يعبر عنه القول والخط يثبت التعبير بالقول ويحافظ عليه ، ويمكن الرجوع اليه حين ارادة النطق به مرة ثانية ، فاذا احتمل الخط الغلط والخطا والوهم ، ظهر ذلك في النطق .

ويؤيد هذا الفهم النظري السابق ما حدث فعلا في كتب التصحيف والتحرير ، اذ ان وصفها لتحرير العلماء وتصحيقاتهم فيما اوردته من مواقف وامثلة جاء صريح الدلالة على ان ذلك قد حدث نطقا لا كتابة ، وسماها لا رسما .

ومما ساقه حمزة الاصبهاني عن العلماء المصحفين نصا قوله :

* ابو عبيدة : روى بيت امرئ القيس :

تجاوزت احراسا واهوال معشر
على حراس لو يسرون مقتلى

اي : اظهروا ، والصواب في رواية الاصمعي (لو يسرون مقتلى) ومعناها : يظهرون .

* ابو زيد : حكى ابن دريد عن ابن حاتم قال :

انشدت الاصمعي :
(جايا ترى بيله مسجعا)

فقال : صحفت ، وانما هو (ترى قليلة مسجعا)
ثم قال : من انشدك ؟ قلت : اعلم الناس لتفاضل عنى -
وانما عنى ابو حاتم ابا زيد .

* اللحياني : املى اللحياني (مثل استمان بدقنه) فقام اليه ابن السكيت - وهو حدث - فقال يا ابا الحسن ، انما تقول العرب (مثل استمان بدقته) لان البعير اذا رام النهوض استمان بجنبه ، فقطع الاملاء . (3) .

فالرواية والانشاد والاملاء كلها من صفات المشاهدة لا من صفات الكتابة ، مما يدل على ما نحن بصدده من ان التصحيف والتحرير وان كان منشؤهما الرسم والكتابة ، فقد حمل خطأهما نطق اللغة وروايتها

ولقد سبق ان مظاهر التصحيف والتحرير تكون في تبادل الحروف المتميزة بالنقط ، او الشكل الذي يحدد نطق هذه الحروف ، ويفرق بين الصيغ ، او وضع حرف مكان آخر واحلاله محله مما يفسر نطق الكلمة ، وينتج من ذلك احيانا مخالفة بعض الظواهر النحوية وان كان ذلك قليلا .

والذي يترتب على تبادل الحروف المتميزة بالنقط في التصحيف حدوث كلمات جديدة ذات معنى مخالف لما اراده منتج النص اصلا ، وقد تكون الكلمات المجردة من التصحيف لا معنى لها على الاطلاق ، وانما هي هراء لغوي لا يفيد شيئا .

اما تغيير شكل الحروف فيترتب عليه في النطق امثلة جديدة تتدرج تحت صيغ صرفية مخالفة لما كانت عليه قبلا ، وقد تخرج عن صيغ الصرف ومقتضيات اللغة اصلا ، فيحكم عليها بالخطا ، والاول من هذين النوعين انحراف في المعنى ، والثاني انحراف لغوي في بنية الكلمات .

وتغيير الحروف غير المميزة بالنقط يترتب عليه ايضا كلمات جديدة ذات معنى مغاير لما قصده منها صاحبها الاصلي ، او كلمات مجردة البنية يحكم عليها ايضا بالخطا .

(1) انظر : مصادر الشعر الجاهلي ، فقد تفصل البحث كله بانها طرق نقل اللغة الى العلماء ومنها الكتابة . وساق لذلك ادلة مقنعة .

(2) التنبيه على حدوث التصحيف ص 37 .

(3) انظر : السابق ص 69 و 77 و 93 على التوالي .

ففي النموذج الاول ترتب على تغيير نقط الحروف وجود كلمتين هما (تعتر) و (تمنز) تنازع حولهما الشيباني والاصمعي ، وكلاهما صحيح لفة ومعنى .

اما النموذج الثاني فان تغيير نقط حروف الكلمات فيه أنتج كلمات لا معنى لها حتى ظنها الجاحظ كلاما « بالمبرانية » وقدم للمعلم بسببها النصح الساخر قائلا « ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد .

ثانيا : التغيير في شكل الحروف :

* قال خلف الاحمر : انشد المفضل للمخبل :

واذا لم خيالها طرقت
هيني ، فماد شئونها سجم

فقلت : انما هو (طرفت) فلج ساعة ، ثم رجع عنه (3) .

* قال ابو احمد العسكري : ومما يقع فيه التصحيف حتى شك في ذلك بعض العلماء ، فجمال له تفسيراً آخر - روى أن النبي (ص) أتاه الملكان ، فسقا بطنه ، ثم قال احدهما (ايتني بالسكينة) فرواه بعضهم (ايتني بالسكينة) بكسر السين على أنها مؤنث (سكين) وانما هي (السكينة) بفتح السين والكفاف غير المشددة .

قال : وقد نسرته ابن الانباري على انه لفة في (السكين) واكثر اهل اللغة لا يرفون ادخال الهاء فيها، وهذا ذهاب عن الصواب (4) .

ففي النموذج الاول غيرت (طرفت) الى (طرقت) فوجدت كلمة جديدة ، وكل منهما تختلف عن الاولى في الصيغة الصرفية ، علاوة على ما غير من النقط فيها ، وكل منهما صحيحة من حيث الصيغة والمعنى .

اما الثاني فان التصحيف بتغيير الحركات أنتج كلمة ليست من اللغة ، وحكم عليها العسكري بانها « ذهاب عن الصواب » .

واما ما يترتب على التصحيف والتحرير من خطأ النحو ، فيبدو اذا حدث التغيير في شكل آخر الكلمة او استخدام اداة في تركيب لغوي لا يتطلبها المعنى النحوي له ، وهذا الصنف وان كان قليلا الا انه يمثل جانبا يستحق الدراسة والاهتمام .

واليك نماذج قليلة تمثل الاصناف السابقة واحتمالاتها :

اولا : التغيير في الحروف المميزة بالنقط :

* عن ابي عمرو الشيباني قال : كنا بالرقبة فانشد الاصمعي :

عنتا باطلا وظلما كما تمنز عن حجرة الربيض الطباء
فقلت له : انما هي (تعتر) من العتيرة . والعنز : الدبح ، فقال الاصمعي (تمنز) اي : تطمن بالمنزرة ، وهي الحربة ، وجمل يصيح ويشغب ، فقلت : تكلم كلام النمل واصب ، والله لو نفخت في شبور يهودي ، وصحت الى التناد ، ما نفعت شيء ، ولا كانت الا (تعتر) (1) .

* وعن الجاحظ قال : مررت بمعلم وهو يلقي صبيا :

يا ابا الفياش جنسى
اخرج الفتيان غشا

لبش في الارض اياس
شربوا املج مشا

فقلت : بالمبرانية هذا ؟ قال : لا ، هو بالعربية ، فلما تأملته اذا هو مكتوب :

يا ابا المباس حبسى
اخرج الفتيان عشا

ليس في الارض اناس
شربوا املج منسا

فقلت : ايها المعلم ، انك ضائع بهذا البلد ، قال : نعم ، قدور ومرزايق (2) .

(1) المزهج ج 2 ص 359 - شرح ما يقع فيه التصحيف والتحرير ص 93 مع اختلاف سير .

(2) محاضرات الادباء ج 1 ص 63 .

(3) التنبيه على حدوث التصحيف ص 78 .

(4) تصحيف الحديث ص 126 .

ثالثا : التغيير في الحروف غير المنقوطة :

* روى الاصمعي بيت « أوس بن حجر »

اجون تدارك ناقتي بقرالها
واكبر ظني ان جونا سيفعل

قال ابن الاثيري : صحف الهمي ، انما هو
(تدارك ناقتي بقرالها) اي : ما دمت اطمع فيها (1).

* ورد في كتاب « دليل لغة العرب » الكلمات
الآية والتعليق عليها .

الماس - الماذ تحريف

ببغان - ببغفلن تحريف (2)

وفي النموذج الاول واضح الفرق بين (قرى لها)
و (قراها) بسبب تغيير الباء باللام، واما الامثلة الاخيرة
فالصورة الحادثة بالتحريف صورة خاطئة لغويا ،
فالكلمات حرفتا نتيجة تغيير السين ظاء في الاولى ،
وتغيير الباء هينا في الثانية .

رابعا : ظواهر النحو في التصحيف :

* عن ابن عمرو قال : انشدت الفرزدق ويده
في يدي لابن احمر :

فاما زال سرح من معد

واجدر بالحوادث ان تكونا

فلا تصلى بمطروق اذا ما

سرى بالقوم اصبح مستكينا

(1) التنبية على حدوث التصحيف ص 74 .

(2) دليل لغة العرب ص 32 .

(3) شرح ما يقع فيه التصحيف والتحريف ص 77 .

فقال لي : ارشدك ام ادعك ؟ قلت : ترشدني ،
قال : اذا كان ممن يسرى بالحي ، فليس بمطروق
وانما هو (اذا سرى في الحي) فعلت اني افعلت ذلك ،
ونا الامر كما قال .

وهذا من التحريف لا من التصحيف (3) .

فمن الواضح ان الخطا في الجملة جاء من
استخدام حرف الجر (الباء) في الموضع الذي
يقتضي فيه المقام حرف الجر (في) وهو خطأ يعود
الى المعاني التي ترد في النحو لاستخدام حروف
الجر في مواطنها المناسبة ، وقد هلق المسكري على
ذلك بانه من التحريف لا من التصحيف ، ويبدو ان
هذا الفهم لما يشمله التحريف من بعض ظواهر النحو
قد اتسع مداه فيما بعد حتى سوغ ذلك للصفدي في
القرن الثامن الهجري ان يورد في كتابه « تصحيح
التصحيف وتحريف التحريف » ما يشمل مظاهر اللحن
في النطق ، ولا يقتصر في ذلك على النطق المترتب
على الخطا في الكتابة .

واخيرا :

فان الذي سوغ لنا في البحث من الصواب
والخطا في اللغة ان نعرض لقضية « التصحيف
والتحريف » - مع انهما يرجعان اصلا لرسم الكلمات
وكتابتها - ما تبين مما سبق عرضه من الصلة بين
الكتابة والرواية الشفهية من ناحية ، وما ترتب على
الامر من الخطا اللغوي المنطوق في معاني
الكلمات وبنيتها الصرفية ، وبعض الظواهر النحوية .